

روح المعاني

السلام من أواخر ملوك الطوائف كما لا يخفى ويكون بين هذا البعث والبعث الأول على القول بأن المبعوث بختنصر وأتباعه مدة متطاولة ففي بعض التواريخ أن قتل الإسكندر دارا بعد بختنصر بأربعمئة وخمس وثلاثين سنة وبعد مضي نحو من ثلثمائة سنة من غلبة الإسكندر ولد المسيح عليه السلام ولا شك أن قتل يحيى E بعد الولادة بزمان والبعث بعد القتل كذلك فيكون بين البعثين ما يزيد على سبعمئة وخمس وثلاثين سنة والذي ذهب إليه اليهود أن المبعوث أولا بختنصر وكان في زمن آرميا عليه السلام وقد أذرهم مجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام كما نطق به كتابه فحبسوه في بئر وجرحوه وكان تخريبه لبيت المقدس في السنة التاسعة عشر من حكمه وبين ذلك وهبوط آدم ثلاثة آلاف وثلثمائة وثمانين وثلاثين سنة وبقي خرابا سبعين سنة ثم إن أسبانيوس قيصر الروم وجه وزيره طوطوز إلى خرابه فخر به سنة ثلاثة آلاف وثمانمئة وثمانية وعشرين فيكون بين البعثين عندهم أربعمئة وتسعون سنة وتفصيل الكلام في ذلك في كتبهم وإنا نعلم بحقيقة الحال ونعم ما قيل إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخ البعث ونحوه مما لا يتعلق به كبير غرض إذ المقصود أنه لما كثرت معاصيهم سلط الله تعالى عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يقتضي اتحاد المبعوثين أولا وثانيا ومن لا يقول بذلك يجعل رجوع الضمائر للعباد على حد رجوع الضمير للدرهم في قولك : عندي درهم ونصفه فافهم .

عسى ربكم أن يرحمكم بعد البعث الثاني إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي وإن عدتم للإفساد بعد الذي تقدم منكم عدنا للعقوبة فعاقبناكم في الدنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرتين الأوليين وهذا من المقتضى لهم في الكتاب أيضا وكذا الجملة الآتية وقد عادوا بتكذيب النبي وقصدهم قتله فعاد الله تعالى بتسليطه E عليهم فقتل قريظة وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقيين وقيل عادوا فعاد الله تعالى بأن سلط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الأتاوة ونحو ذلك والأول مروى عن الحسن وقتادة والتعبير بأن للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يعودوا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا 8 قال ابن عباس وغيره : أي سجننا وأنشد في البحر قول لبيد : ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن على باب الحصار قيام فإن كان اسما للمكان المعروف فهو جامد لا يلزم تأنيته وتذكيره وإن كان بمعنى حاصر أي محيط بهم وفعل بمعنى فاعل يلزم مطابقته فعدم المطابقة هنا إما لأنه على النسب كلاين وتامر أي ذات حصر وعلى ذلك خرج قوله تعالى السماء منفطر به .

أي ذات انفطار أو لحمله على فاعل بمعنى مفعول وقيل التذكير على تأويل جهنم بمذكر وقيل

لأن تأنيثها ليس بحقيقي نقل ذلك أبو البقاء وهو كما ترى .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن الحسن أنه فسر ذلك بالفراش والمهاد وقال الراغب : كأنه جعل الحصار المرمول وأطلق عليه ذلك لحرص بعض طاقاته على بعض فحصر على هذا بمعنى محصور وفي الكلام التشبيه البليغ وجاء الحصار بمعنى السلطان وأنشد الراغب في ذلك البيت السابق ثم قال : وتسميته بذلك إما لكونه محصورا نحو محجب وإما لكونه حاصرا أي مانعا لمن أراد أن يمنع من الوصول إليه اهـ وحمل ما في الآية